الـوقـوف فـي عـرفـة

عرفات ساحات تَضِجُّ ورحمةٌ تغشى ودمع بينها هَتَّـانُ

□ الـوقـوف فـي عـرفـة □

أما يوم عرفة والوقوف بعرفة ؛ فهذا يوم قد عظّم الله أمره ، ورفع على الأيام قدره .

• **فقد أقسم الله تعالى به :**

والعظيم لا يقسم إلا بعظيم .

قال تعالى : ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ .

قال ابن عباس: الوتر يوم عرفة، والشفع يوم الذبح. وهو قول عكرمة والضحّاك.

وهو « اليوم المشهود » الذي أتى في سورة البروج .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود يوم القيامة ، واليوم المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة – قال : – وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذه الله منه »[1] .

• **عرفة عيد لأهل الموسم :**

ومن فضائله أن الله عز وجل أنزل فيه : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [المائدة : ٣] .

عن طارق بن شهاب[2] قالت اليهود لعمر : إنكم تقرءون آية لو نزلت

---

(١) حديث حسن : رواه الترمذي وحسنه الألباني في المشكاة ١٣٦٢ ، والصحيحة ١٥٠٢ ، وصحيح الترمذي رقم ٢٦٥٩ .

(٢) في رواية للبخاري في كتاب الإيمان « أن رجلا من اليهود » . وهو كعب الأحبار .

فينا لاتخذناها عيدا . فقال عمر : إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت ، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت : يوم عرفة ، وإنا والله بعرفة يوم جمعة[١] .

قال ابن حجر : « التنصيص على أن تسمية يوم عرفة يوم عيد . وقد نقل الكرماني عن الزمخشري أن العيد هو السرور العائد وأقرّ ذلك ، فالمعنى : أن كل يوم شرع تعظيمه يسمى عيدا » اهـ . والعيد موسم الفرح والسرور . وأفراح المؤمنين وسرورهم في الدنيا إنما هو بمولاهم إذا فازوا بإكمال طاعته ، وحازوا ثواب أعمالهم بوثوقهم بوعده لهم عليها ومغفرته **﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾** .

فالغافل يفرح بلهوه وهواه. والعاقل يفرح بمولاه. وأنشد سمنون في هذا المعنى:

وكان فؤادي خاليا قبل حبكم ... وكان بذكر الخلق يلهو ويفرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه ... فلست أراه عن فِنائك يبرحُ
رُميتُ ببعد منك إن كنت كاذبا ... وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها ... إذا غِبْتَ عن عيني لعيني يملح
فإن شئت واصلني وإن شئت لاتصـ ... ـل فلست أرى قلبي لغيرك يصلحُ

فيوم عرفة يوم عيد لأهل الموقف ، فإنما يكمل الحج بيوم عرفة والوقوف بعرفة ، فإنه ركن الحج الأعظم كما قال رسول الله ﷺ : « الحج عرفة » .

قال ابن حجر : « استدل بهذا الحديث[٢] على مزية الوقوف بعرفة يوم الجمعة على غيره من الأيام ؛ لأن الله تعالى إنما يختار لرسوله ﷺ الأفضل ، وأن الأعمال تشرف بشرف الأزمنة كالأمكنة ، ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع ، ولأن في يوم الجمعة الساعة المستجاب فيها الدعاء ، ولا سيما على قول من قال : إنها بعد العصر ، وأما ما ذكره رزين في جامعه مرفوعا : « خير يوم طلعت فيه

---

(١) البخاري ومسلم .
(٢) حديث عمر السابق .

الشمس يوم عرفة وافق يوم الجمعة ، وهو أفضل من سبعين حجة في غيرها » فهو حديث لا أعرف حاله »[١] اهـ .

• **وفيه أخذ ميثاق يوم ﴿ ألست ﴾ :**

وفيه أخذ الله الميثاق على ذرية آدم بتوحيده ، فما أعظمه من يوم وما أعظمه من ميثاق .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة ، وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ ، ثم كلمهم قبلا قال : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾[٢] .

• **ومن فضائله أن الله تعالى يباهي بالحاج فيه ملائكته ويعم بالغفران :**

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء ، فيقوَل لهم : انظروا إلى عبادي هؤلاء جاءوني شعثا غُبرا »[٣] .

قال ﷺ : « إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة ، يقول : انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا »[٤] .

---

(١) فتح الباري ٨ /١٢١ .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس، والنسائي، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في الأسماء، وابن أبي عاصم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٩٧، والصحيحة ١٦٢٣ .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه وصححه ،والحاكم في المستدرك وصححه، والبيهقي في سننه، وأحمد في مسنده، وابن خزيمة، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٦٣ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير عن ابن عمرو، وصححه السيوطي والألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٦٤ .

قال المناوي في [فيض القدير] : (٢ /٢٧٦ -٢٧٧) :

« قال في المطامح : وذا يقتضي الغفران وعموم التكفير ؛ لأنه لا يباهي بالحاج إلا وقد تطهر من كل ذنب ، إذ لا تُباهى الملائكة وهم مطهرون إلا بمطهرٍ ، فينتج أن الحج يكفّر حق الحق وحق الخلق ، حتى الكبائر والتبعات ولا حجر على الله في فضله ، ولا حق بالحقيقة لغيره ، وفيه أفضلية عرفة حتى على النحر ، وهو ما عليه الأكثر ، وإنما سُمي الموقف عرفة ؛ لأنه نُعت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصره عرفه ، أو لأن جبريل كان يدور في المشاعر فلما رآه قال : قد عرفت ، أو لأن الناس يتعارفون فيه » .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا ، أو أمة من النار ، من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ، ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ماذا أراد هؤلاء ؟ »(١). عن بلال بن رباح ، أن النبي ﷺ قال له غداة جمع : « يا بلال أسْكِت الناس - أو أنْصِت الناس - ثم قال : إن الله تطوّل عليكم في جمعكم هذا ، فوهب مسيئكم لمحسنكم ، وأعطى محسنكم ما سأل ، ادفعوا باسم الله »(٢).

• وأفضل الدعاء دعاء يوم عرفة :

قال رسول الله ﷺ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »(٣).

قال رسول الله ﷺ : « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له »(٤).

---

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجة .

(٢) أخرجه ابن ماجة عن بلال، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٦٢٤، وصحيح الجامع رقم ١٧٣٠ .

(٣) أخرجه الطبراني عن علي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٥٠٣ .

(٤) ذكره مالك عن طلحة بن عبيد بن كريز، وهذا إسناد مرسل صحيح، وقد وصله =

فطوبى لعبدٍ فَقِه الدعاء وفضل الدعاء في يوم الدعاء .

ولله در حادي الأرواح – ابن القيم – حين يصور ذلك الموقف .

وراحوا إلى التعريف يرجون رحمة ومغفـرة ممن يجود ويكـرم
فلله ذاك الموقف الأعظم الذي كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم
ويدنو به الجبار جل جلالـه يباهي بهم أملاكه فهو أكرم
يقول عبادي قد أتوني محبـة وإني بهم بر أجود وأرحـم
فأشهدكم أني غفرت ذنـوبهم وأعطـيْتهم ما أملـوه وأنعـم
فبشراكم يا أهل ذا الموقف الذي به يغفر الله الذنوب ويرحم
فكم من عتيق فيه كمل عتقه وآخر يستسعي وربك أرحم
وما رؤي الشيطان أغيظ في الورى وأحقر منه عندها وهو ألأم
وذاك لأمر قـد رآه فغاظـه فأقبل يحثو الترب غيظا ويلطم
وما عاينت عيناه من رحمة أتت ومغفرة من عند ذي العرش تقسم
بنى ما بنى حتى إذا ظن أنه تمكن من بنيانه فهو محكـم
أتى الله بنيانا له من أساسه فخـر عليـه ساقطـا يتهدم
وكم قدر ما يعلو البناء وينتهي إذا كان يبنيه وذو العرش يهدم

من آداب هذا اليوم أن يقف مستقبلا القبلة ، رافعا يديه يدعو ويلبي . ويكثر فيه من التهليل فإنه خير الدعاء يوم عرفة . وإن زاد في التلبية أحيانا « إنما الخير خير الآخرة » جاز .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

« لبيك إله الحق » والتزام تلبيته ﷺ أفضل ، وإن كانت الزيادة عليها

= ابن عدي والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة مرفوعا، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١١٣، والصحيحة رقم ١٥٠٣ .

جائزة لإقرار النبي ﷺ الناس الذين كانوا يزيدون على تلبيته قولهم : « لبيك ذا المعارج ، لبيك ذا الفواضل » .

وكان ابن عمر يزيد فيها « لبيك وسعديك ، والخير بيديك ، والرغباء إليك والعمل »[(١)].

والسنة للواقف في عرفة ألا يصوم هذا اليوم .

ولا يزال هكذا ذاكرًا ملبيا داعيا بما شاء ، راجيا من الله تعالى أن يجعله من عتقائه الذين يباهي بهم الملائكة .

يقول ابن عثيمين : فإن حصل له ملل وأراد أن يستجم بالتحدث مع أصحابه بالأحاديث النافعة أو قراءة ما تيسر له من الكتب المفيدة خصوصا فيما يتعلق بكرم الله وجزيل هباته ليقوي جانب الرجاء في ذلك اليوم كان ذلك حسنا .

أخي : ما رؤي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رؤي يوم بدر .

وحقيق به أن يحثو التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور ، وهو يرى رحمة الغفور تتنزل على عباده الموحدين الذين يكثرون من شهادة التوحيد ، أصل دين الإسلام ، الذي أكمله الله تعالى في ذلك اليوم ، وأساسه .

فتحقيق كلمة التوحيد واللهج بها يوجب عتق الرقاب ، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار كما ثبت في الصحيح .

قال ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، عشرا ، كان كمن أعتق رقبة من ولد

---

(١) متفق عليه .

إسماعيل »[1]. ولفظ الترمذي ومسلم « كانت له عدل أربع رقاب من ولد إسماعيل » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة »[2].

وقال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات ، كان له بعدل نسمة »[3].

وقال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل عملا أكثر من ذلك »[4].

○ أحوال الصالحين بعرفة ○

وإليك .. أخي مواقف السادة من عباد سلفنا وأئمتهم .

كان حكيم بن حزام رضي الله عنه – يقف بعرفة ومعه مائة بدنة مقلدة ، ومائة رقبة فيعتق رقيقه فيضج الناس بالبكاء والدعاء ، يقولون : ربنا هذا عبدك

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي أيوب .

(٢) صحيح: أخرجه البزار وأحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه، وأبو نعيم في الحلية عن جابر، وأبو نعيم في الحلية عن أنس. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٠٩ .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك عن البزار وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣١٢ .

(٤) صحيح: رواه أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجة عن أبي هريرة.

قد أعتق عبيده ونحن عبيدك فأعتقنا . وجرى للناس مرة مع الرشيد نحو هذا .

• كانت أحوال الصالحين في الموقف بعرفة تتنوع .

فمنهم من كان يغلب عليه الخوف أو الحياء .

وقف مطرف بن عبد الله بن الشخير وبكر المزني بعرفة فقال أحدهما : اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي، وقال الآخر: ما أشرفه من موقف وأرجاه لأهله لولا أني فيهم. يالتواضع الصالحين ويالأدبهم مع ربهم وخوفهم مع حسن سيرتهم .

وقف الفضيل بعرفة والناس يدعون ، وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة ، قد حال البكاء بينه وبين الدعاء ، فلما كادت الشمس أن تغرب رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوءتاه منك وإن عفوت .

الفضيل الحيي يقول هذا، وهو طبيب القلوب الذي كان ابن عيينة شيخ الحجاز يقبل يده. وانظر إلى تواضع الفضيل لتعرف لم رفع الله ذكره بين الصالحين.

قال الفضيل لشعيب بن حرب بالموسم : إن كنت تظن أنه شهد الموقف أحد شر مني ومنك فبئس ما ظننت .

دعا بعض العارفين بعرفة فقال : اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصيبة على تركك القبول مني .

وقف بعض الخائفين بعرفة إلى قرب غروب الشمس فنادى الأمان الأمان ، فقد دنا الانصراف فليت شعري ما صنعت في حاجة المساكين .

وإني من خوفكم والرجـا   أرى الموت والعيش منكم عيانا
فمنّـوا على تـائب خائـف   أتاكم ينادي الأمانا الأمانـا

إذا طلب الأسير من المِلك الكريم أمنَه أمَّنَهُ .

الأمان الأمان وزري ثقيل   وذنوبي إذا عُدِدْنَ تطـولُ
أوبقتني وأوثقتـني ذنـوبي   فترىٰ لي إلى الخلاص سبيلُ

وقف بعض الخائفين بعرفة فمنعه الحياء من الدعاء فقيل له: لم لا تدعو؟ فقال: ثمَّ وحشة، فقيل له: هذا يوم العفو عن الذنوب، فبسط يديه ووقع ميتا.

جز أيها الحادي إلى نعمانِ فاستذكرت عهدا لها بالبانِ
فسالت الروح من الأجفانِ تشوقا إلى الزمان الفاني

وقال غيره :

قد لَجَّ من الغرام حتى قالوا قد جن فيهم هكذا البلبال
الموت إذا رضيته سلسال في مثل حبك ترخص الآجال

وقف بعض الخائفين بعرفات وقال : إلهي ، الناس يتقربون إليك بالبُدْن ، وأنا أتقرب إليك بنفسي .

للناس حج ولي حج إلى سكني تهدي الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي

ما يرضى المحبون لمحبوبهم بإراقة دماء الهدايا ، وإنما يهدون له الأرواح .

أرى موسم الأعياد أنس الحبائب وما العيد عندي غير قرب الحبائب
إذا قربوا بدنا فقرباني الهوى فإن قبلوا قلبي وإلّا فقالبي
وما بدم الأنعام أقضي حقوقهم ولكنْ بما بين الحشا والترائب

وكان أبو عبيدة الخواص قد غلب عليه الشوق والقلق ويقول : واشوقاه إلى من يراني ولا أراه . وكان بعد ما كبر يأخذ بلحيته ويقول : يا رب ، قد كبرت فاعتقني ورئي بعرفة وقد ولع به الوله وهو يقول :

سبحان مَنْ لو سجدنا بالعيون له على حمى الشوك والمحمي من الإبر
لم نبلغ العُشر من معشار نعمته ولا العشير ولا عشرا من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه سبحانه من مليك نافذ القدر
سبحان مَنْ هو أنسي إذْ خلوت به في جوف ليلي وفي الظلماء والسحر
أنت الحبيب وأنت الحب يا أملي من لي سواك ومن أرجوه يا ذُخري

ومن العارفين من كان في الموقف يتعلق بأذيال الرجاء .

قال ابن المبارك : جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان ، فقلت له : مَنْ أسوأ هذا الجمع حالا ؟ .

قال : الذي يظن أن الله لا يغفر لهم .

وروي عن الفضيل أنه نظر إلى تسبيح الناس وبكائهم عشية عرفة فقال : أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانقا ؛ يعني : سدس درهم ، أكان يردهم ؟ قالوا لا . قال : والله للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق .

وإني لأدعو الله أطلب عفوه   وأعلم أن الله يعفو ويغفر
لئن أعظم الناس الذنوب فإنها   وإن عظمت في رحمة الله تصغر

ذكر عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى قال : صحبت جعفر الصادق ، فلما أراد أن يلبي تغير وجهه وارتعدت فرائصه؛ فقلت: ما لك يا بن رسول الله ﷺ، فقال: أردت أن أُلبِّي. قلت: فما يوقفك ؟ قال : أخاف أن أسمع غير الجواب .

وانـزل الـوادي بأيمنـه   إنـه بالدمـع مـلآن
وارم بالطرف العقيـق فلي   ثَـمَّ أوطـار وأوطـان
وأنشد القلب المشوق عسى   يرجـع المفقـود نشوان
وابك عني ما استطعت إذا   ما بـدا للطـرف نعمـان
واقْرِه عني السلام فسكـ   ـان قلبـي فيـه سكـان
لا تَزِدْني يا عزول جـوى   أنـا بـالأشواق سكـران

فهنيئا لمن رزقه الله الوقوف بعرفة بجوار قوم يجأرون إلى الله بقلوب محترقة ودموع مستبقة ، فكم فيهم من خائف أزعجه الخوف وأقلقه ، ومحب ألهبه الشوق وأحرقه ، وراج أحسن الظن بوعد الله وصدقه ، وتائب نصح لله في التوبة وصدقه ، وهارب لجأ إلى باب الله وطرقه ، فكم هنالك من مستوجب للنار أنقذه الله وأعتقه ، ومِنْ أسير للأوزار فكّه وأطلقه ، وحينئذ يطلع عليهم أرحم الرحماء ويباهي بجمعهم

أهل السماء ، ويدنو ثم يقول : ما أراد هؤلاء ؟! لقد قطعنا عند وصولهم الحرمان ، وأعطاهم نهاية سؤلهم الرحمن[1] .

رفعوا الأكفَّ وأرسلوا الدعواتِ وتجردوا للهِ في عرفـــاتِ
شُعْثًا تُجَلِّلُهُـمْ سحـائبُ رحمةٍ غُبْرًا يفيضُ النورُ في القَسَمات
وكَأَنَّ أجنحةَ الملائكِ عانقَتْ أرواحَهـم بـالبر والطاعـات
فتنزلت بين الضلوع سكينـة علويـة موصولـة النفحـات
وتصاعـدت أنفاسهـم مشبوبـةً وجْدًا يسيلُ بِوَاكِفِ العبراتِ
هذي ضيوفُك يا إلهي تبتغـي عفـوًا وترجـو سابـغ البركات
غصّتْ بهم في حَلِّهِمْ ورحيلهم رحبُ الوهاد وواسعُ الفلوات
تركوا وراء ظهورهم دنيا الورى وأتَوْكَ في شوق وفي إخبات
وفدوا إلى أبواب جودك خُشَّعًا وتزاحموا في مهبط الرحمات
فاقبل إله العرش كل ضراعةٍ وامح الذنوب وكَفِّر الزلّاتِ

○ الإفاضة من عرفـات ○

•عن جبير بن مطعم قال : « أضللت بعيرًا لي ، فذهبت أطلبه يوم عرفة ، فرأيت النبي ﷺ واقفا بعرفة ، فقلت : هذا والله من الحُمسِ ، فما شأنه هاهنا » رواه البخاري .

قال رسول الله ﷺ: «كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم».

وقال عروة : كانوا الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحُمس – والحمس قريش وما ولدت – وكانت الحمس يحتسبون على الناس ، فيعطي الرجُل الرجلَ الثياب يطوف فيها ، وتعطى المرأة المرأة الثياب تطوف فيها ، فمن لم يعطه الحمس طاف بالبيت عريانا ، وكان يُفيض جماعة الناس ، من عرفات ويفيض الحُمسُ

(١) بتصرف من المدهش، والتبصرة، ولطائف المعارف .

من جمع . قال : وأخبرني أبي عن عائشة رضي الله عنها أن هذه الآية نزلت في الحمس ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ قال : كانوا يفيضون من جمع فدفعوا إلى عرفات . رواه البخاري .

الأحمس : هو الشديد على دينه ، وكانت قريش تسمى الحمس ، وكان الشيطان قد استهواهم فقال لهم : إنكم إن عظَّمتم غير حرمكم استخفّ الناس بحرمكم فكانوا لا يخرجون من الحرم ، ولا يتجاوزونه ، ويقولون نحن أهل الله لا نخرج من الحرم ، وكان سائر الناس يقف بعرفة . وهم تركوا الموقف بعرفة ويدفعون من المزدلفة .

قال إبراهيم الحربي : قال مجاهد : الحمس قريش ومن كان يأخذ مأخذها من القبائل ، كالأوس والخزرج وخزاعة وثقيف وغزوان وبني عامر وبني صعصعة وبني كنانة إلا بكر ، والأحمس في كلام العرب الشديد ، وسموا بذلك لمّا شددوا على أنفسهم ، وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لا يأكلون لحما ولا يضربون وبرا ولا شعرًا ، وإذا قدموا مكة وضعوا ثيابهم التي كانت عليهم .

ومعنى الآية : إذا أفضتم من عرفات إلى المشعر الحرام فاذكروا الله عنده ، ولتكن إفاضتكم من المكان الذي يفيض فيه الناس غير الحمس ، أو فالتقدير : فإذا أفضتم اذكروا ، ثم لتكن إفاضتكم من حيث أفاض الناس ، لا من حيث كان الحمس يفيضون .

الحمس قريش وما ولدت ، زاد معمر : وكان ممن ولدت قريش خزاعة وبنو كنانة وبنو عامر بن صعصعة ، وتقدم في أثر مجاهد أن منهم غزوان وغيرهم ، وذكر إبراهيم الحربي في [غريبه] عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال : كانت قريش إذا خطب إليهم الغريب اشترطوا عليه أن ولدها على دينهم ، فدخل في الحمس من غير قريش ثقيف وليث وخزاعة وبنو عامر بن صعصعة ؛ يعني : وغيرهم ، وعرف بهذا أن المراد بهذه القبائل من كانت له من أمهاته قريشية ، لا جميع القبائل المذكورة .

• **فائـــدة :**

إذا غربت الشمس أفاض من عرفات إلى المزدلفة وعليه السكينة والهدوء ، لا يزاحم الناس بنفسه أو دابته أو سيارته .

قال ﷺ : « أيها الناس ، عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بإيجاف الخيل والإبل »[1].

وقال ﷺ : « يا أيها الناس ، عليكم بالسكينة والوقار ، فإن البر ليس في إيضاع الإبـل » . وإيضاعها : هو حملها على سرعة السير .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس السابق من سبق بعيره وفرسه ، ولكن السابق من غفر له . قال المهلب : إنما نهاهم عن الإسراع إبقاء عليهم ؛ لئلا يجحفوا بأنفسهم مع بعد المسافة .

فإذا وصلها أذن وأقام وصلى المغرب ثلاثا ، ثم أقام وصلى العشاء قصرا ، وجمع بينهما .

وإن فصل بينهما لحاجة لم يضره ذلك .

ولا يصلي بينهما ولا بعد العشاء شيئًا . ثم ينام حتى الفجر .

ولا بد من صلاة الفجر في المزدلفة لجميع الحجاج إلا الضعفة والنساء ، فإنه يجوز لهم أن ينطلقوا منها بعد نصف الليل خشية حطمة الناس .

ثم يأتي المشعر الحرام – وهو جبل في المزدلفة – فيرقى عليه، ويستقبل القبلة، فيحمد الله ويكبره ويهلله ويوحده ويدعو، ولا يزال كذلك حتى يسفر جدًا.

ومزدلفة كلها موقف ، فحيثما وقف فيها جاز .

عن عمرو بن ميمون قال : « شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجَمْع

---

(١) فتح الباري ٣ /٦٠٣ – ٦٠٤ .

الصبح ، ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يزالون يفيضون حتى تطلع الشمس ، ويقولون : أَشْرِق ثبير ، وأن النبي ﷺ خالفهم ، ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس » رواه البخاري .

وعن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون بالمزدلفة ، حتى إذا طلعت الشمس فكانت على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فدفع رسول الله ﷺ حين أسفر كل شيء قبل أن تطلع الشمس ، وفي هذا فضل الدفع من الموقف بالمزدلفة عند الإسفار . ونقل الطبري الإجماع على أن من لم يقف فيه حتى تطلع الشمس فاته الوقوف .

• فائـــدة :

قال الدهلوي : « السر في المبيت بمزدلفة : أنه كان سنة قديمة فيهم ، ولعلهم اصطلحوا عليها ، لما رأوا من أن للناس اجتماعا لم يعهد مثله في غير هذا الموطن ، ومثل هذا مظنة أن يزاحم بعضهم بعضا ويحطم بعضهم بعضا ، وإنما براحهم[١] بعد المغرب[٢]، وكانوا طول النهار في تعب يأتون من كل فج عميق ، فلو تجشموا أن يأتوا منى والحال هذه لتعبوا .

إنما شرع الوقوف بالمشعر الحرام لأن أهل الجاهلية يتفاخرون ويتراءون ، فأبدل من ذلك إكثار ذكر الله ليكون كابحًا عن عادتهم ، ويكون التنويه بالتوحيد في ذلك الموطن كالمنافسة كأنه قيل : هل يكون ذكركم الله أكثر ، أو ذكر أهل الجاهلية مفاخرهم أكثر » اهـ .

(١) رجوعهم من عرفات .

(٢) « إنما دفع بعد الغروب ردا لتحريف الجاهلية، فإنهم كانوا لا يدفعون إلا قبل الغروب ؛ ولأن قبل الغروب غير مضبوط ، وبعد الغروب أمر مضبوط ، وإنما يؤمر في مثل ذلك اليوم بالأمر المضبوط » اهـ . قول الدهلوي .

○ الإفاضة من حيث أفاض الناس والذكر عند المشعر الحرام ○

قال تعالى : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [البقرة : ١٩٨ - ١٩٩] .

فصل بين الجاهلية والإسلام .. مقارنة بين الجاهلية والإسلام يتجلى فيه جمال الإسلام ونوره .

والجماعة المسلمة الأولى كانت تدرك حق الإدارك مدى وعمق هذه الحقيقة في حياتها :

لقد كانت قريبة عهد بما كان العرب فيه من ضلال ؛ ضلال في التصور بالاعتقاد ؛ مظهره عبادة الأصنام والجن والملائكة ، ونسبة بنوة الملائكة إلى الله ، ونسبة الصهر إلى الله مع الجن ، إلى آخر هذه المعتقدات السخيفة المتهافتة المضطربة ، التي كانت تنشيء بدورها اضطرابا في العبادات والشعائر والسلوك ، من تحريم بعض الأنعام ظهورها أو لحومها بلا مبرر ؛ إلا تصور علاقات بينها وبين شتى الآلهة ، ومن نذر بعض أولادهم للآلهة ، وإشراك الجن فيها .

ومن عادات جاهلية شتى لا سند لها ؛ إلا هذا الركام من التصورات الاعتقادية المضطربة .

وضلال في الحياة الاجتماعية والأخلاقية ، تمثله تلك الفوارق الطبقية التي تشير الآية التالية ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ إلى إزالتها .

وتمثله تلك الحروب والمشاحنات القبلية التي لم تكن تجعل من العرب أمة يحسب لها حساب في العالم الدولي .

وتمثله تلك الفوضى الخلقية في العلاقات الجنسية والعلاقات الزوجية ، وعلاقات الأسرة بصفة عامة .

وتمثله تلك المظالم التي يزاولها الأقوياء ضد الضعفاء في المجتمع بلا ميزان ثابت يفيء إليه الجميع .

وتمثلها حياة الحرب بصفة عامة ، ووضعهم الإنساني المتخلف الذي لم يرفعهم منه إلا الإسلام .

وحين كانوا يسمعون ﴿ **واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين** ﴾ كانوا يتذكرون الطواف بالبيت عرايا ، كانت ولا شك تتواكب على خيالهم وذاكرتهم ومشاعرهم صور حياتهم الضالة الزرية الهابطة التي كانت تطبع تاريخهم كله ، ثم يتلفتون على أنفسهم ليروا مكانهم الجديد الذي رفعهم إليه الإسلام ، والذي هداهم الله إليه بهذا الدين ، فيدركون عمق هذه الحقيقة وأصالتهم في وجودهم كله بلا جدال . وهذه الحقيقة ما تزال قائمة بالقياس إلى المسلمين من كل أمة ومن كل جيل ... مَنْ هم بغير الإسلام ؟! وما هم بغير هذه العقيدة ؟!

بإسلامي أعيش أنا بقرآني وذا ديني
نقشت حروفه تعلو على كل العناوين
بخط بارز يسمو على كل الميادين
أنا ماذا أكون أنا بلا ربي بلا ديني
أنا ماذا أكون أنا أجيبوني أجيبوني

إنهم حين يهتدون إلى الإسلام وحين يصبح المنهج الإسلامي حقيقة في حياتهم ينتقلون من طور وضيع صغير ضال مضطرب إلى طور آخر رفيع عظيم مهتد مستقيم .. ولا يدركون هذه النقلة إلا حين يصبحون مسلمين حقا يقيمون حياتهم كلها على النهج الإسلامي ... وإن البشرية كلها لتتيه في جاهلية عمياء ما لم تهتد إلى هذا النهج المهتدي .

لا يدرك هذه الحقيقة إلا من يعيش في الجاهلية البشرية التي تعج بها الأرض في كل مكان ، ثم يحيا بعد ذلك بالتصور الإسلامي الرفيع للحياة ، ويدرك حقيقة

المنهج الإسلامي الشامخة على كل ما حولها من مقاذر ومستنقعات وأوحال .

وحين يطل الإنسان من قمة التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي على البشرية كلها في جميع تصوراتها وجميع مناهجها ونظمها بما في ذلك تصورات أكبر فلاسفتها ، ومذاهب أكبر مفكريها ... حين يطل الإنسان من تلك القمة الشامخة يدركه العجب من انشغال هذه البشرية بما هي فيه من عبث ، ومن عنت ومن شقوة ، ومن ضالة ، ومن اضطراب لا يصنعه بنفسه عاقل ، فهذا هو الذي يذكر الله به المسلمين ، وهو يمتن عليهم بنعمته الكبرى .

• **الحج مؤتمر جامع :**

والحج هو مؤتمر المسلمين الجامع الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام .. متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام .. عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة ، ولا يميز فردا عن فرد ، ولا قبيلة عن قبيلة ، ولا جنسا عن جنس ... إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة ، ونسب الإسلام هو وحده النسب ، وصبغة الإسلام هي وحدها الصبغة ، وقد كانت قريش في الجاهلية يتخذون لأنفسهم امتيازات تفرقهم عن سائر العرب ، ومن هذه الامتيازات : أنهم لا يقفون مع سائر الناس في عرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ، ثم يفيض منها فذلك قوله ﴿ **من حيث أفاض الناس** ﴾ ، قفوا معهم حيث وقفوا وانصرفوا معهم حيث انصرفوا ، إن الإسلام لا يعرف نسبًا ولا يعرفق طبقة ، إن الناس كلهم أمة واحدة ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولقد كلّفهم الإسلام أن يتجردوا في الحج من كل ما يميزهم من الثياب ، ليلتقوا في بيت الله إخوانا متساوين ؛ فلا يتجردون من الثياب ليتخايلوا بالأنساب .

دعوا عنكم عصبية الجاهلية ، وادخلوا في صبغة الإسلام ، واستغفروا الله من تلك الكبرة الجاهلية .. استغفروه من كل ما مسّ الحج من مخالفات ولو يسيرة .. هجست في النفس ونطق بها اللسان مما نهي عنه من الرفث والفسوق

والجدال ، وهكذا يقيم الإسلام سلوك المسلمين في الحج على أساس من التصور ، الذي هدى البشرية إليه أساس المساواة وأساس الأمة الواحدة التي لا تفرقها طبقة، ولا يفرقها جنس، ولا تفرقها لغة، ولا تفرقها سمة من سمات الأرض جميعا، وهكذا يردهم إلى استغفار الله من كل ما يخالف هذا التصور النظيف الرفيع(١) .

• الإيضاع(٢) في وادي محسر :

ينطلق الحاج قبل طلوع الشمس إلى منى وعليه السكينة وهو يلبي ، فإذا أتى بطن مُحَسِّر أسرع السير إذا أمكنه ، وهو من منى .

قال الدهلوي : « أوضع بمحسر ؛ لأنه محل هلاك أصحاب الفيل ، فمن شأن من خاف الله وسطوته أن يستشعر الخوف في ذلك الموطن ويهرب من الغضب، ولمّا كان استشعاره أمرًا خفيا ضبط بفعل ظاهر مذكر له ومنبه عليه ». فانظر يا أخي هدي نبيك فالزمه وخالف صراط أهل الجحيم من النصارى الضالين.

• الرمـــي :

يسرع الحاج السير في بطن محسر وهو من منى .

ثم يأخذ الطريق الوسطى التي تخرجه على الجمرة الكبرى .

ويلتقط الحصيات التي يريد أن يرمي بها جمرة العقبة من منى ، وهي آخر الجمرات وأقربهن إلى مكة .

ويستقبل الجمرة ، ويجعل مكة عن يساره ، ومنى عن يمينه . ويرميها بسبع حصيات مثل حصى الخذف ، وهو أكبر من الحمصة قليلا .

ويكبر مع كل حصاة .

---

(١) الظلال بتصرف .

(٢) هو في الدابة تحريك بسرعة . يقال: وضع البعير يضع وضعا ، وأوضعه راكبه إيضاعا إذا حمله على سرعة السير .

ويقطع التلبية مع آخر حصاة[١].

ولا يرميها إلا بعد طلوع الشمس ، ولو كان من النساء أو الضعفة الذين أبيح لهم الانطلاق من المزدلفة بعد نصف الليل ، فهذا شيء ، والرمي شيء آخر .

وله أن يرميها بعد الزوال ولو إلى الليل إذا وجد حرجا في رميها قبل الزوال .

فإذا انتهى من رمي الجمرة ، حل له كل شيء إلا النساء ، ولو لم ينحر أو يحلق ، فيلبس ثيابه ويتطيب .

لكن عليه أن يطوف طواف الإفاضة في اليوم نفسه ، إذا أراد أن يستمر في تمتعه المذكور ، وإلا فإنه إذا أمسى ولم يطف ؛ عاد محرما كما كان قبل الرمي ، فعليه أن ينزع ثيابه ويلبس ثوبي الإحرام ، لقوله ﷺ : « إن هذا يوم رخص لكم إذا أنتم رميتم الجمرة أن تحلّوا من كلّ ما حُرِمتم منه إلا النساء ، فإذا أمسيتم قبل أن تطوفوا هذا البيت صرتم حرما لهيئتكم قبل أن تطوفوا به »[٢].

• فائـــدة :

قال الألباني : « رمي الجمرة لأهل الموسم بمنزلة صلاة العيد لغيرهم ، ولهذا استحب أحمد أن تكون صلاة أهل الأمصار وقت النحر بمنى ، ولهذا خطب النبي ﷺ يوم النحر بعد الجمرة ، كما كان يخطب في المدينة بعد صلاة العيد ، فاستحباب بعضهم صلاة العيد بمنى أخذا بالعمومات اللفظية أو القياسية غلط وغفلة عن السنة ، فإن النبي ﷺ وخلفاءه لم يصلوا بمنى عيدا قط »[٣] اهـ .

○ لطيفـة ○

قال الدهلوي : « السر في رمي الجمار : أنه إنما جعل لإقامة ذكر الله عز

---

(١) مع آخر حصاة أي : أتم رميها .

(٢) صححه ابن القيم وقواه الحافظ في « التلخيص » بسكوته عليه . وصححه الألباني .

(٣) مناسك الحج والعمرة ص ٣٥ .

وجل ، وتفصيله أن أحسن أنواع توقيت الذكر وأكملها وأجمعها لوجوه التوقيت أن يوقت بزمان ومكان ، ويقام معه ما يكون حافظا لعدده محققا لوجوده على رؤوس الأشهاد حيث لا يخفى ، وهذا يلوح في رمي الجمار .

وأيضا ورد في الأخبار أنه سنة سنها إبراهيم عليه السلام حين طرد الشيطان ، ففي حكاية هذا الفعل تنبيه للنفس أي تنبيه » .